وَرَقَةٌ مَنْهَجِيَّةٌ

لتدريس الفقه المالكي

بقلم

الأستاذ الفاضل

محمد الطاهر بن محمد العربي

العمراوي السلجماسي

حفظه الله تعالى

قدمت هذه الورقة في ندوة:

الفقه المالكي تاريخه وأصوله

المنعقدة بجامعة روتردام الإسلامية

الأربعاء 28 رمضان 1428 هـ

10 أكتوبر 2007م

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبي الأمين، وعلى آله وأصحابه أجمعين، وعلى من تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين، أما بعد.

فإن الغرض المتوخَّى من هذه الورقة هو تيسير سبل دراسة الفقه المالكي وتدريسه؛ ليكون المستعد لذلك والراغب فيه على بصيرة من أمره، وبيِّنةٍ من هذا الفقه الذي يشكل ركيزة الفقه الإسلامي، ويعتبر عموده الفقري باعتباره فقهاً جامعاً بين المنقول والمعقول، ومزاوجاً بين الرأي الرشيد والأثر السديد.

وقد رُوعِيَ في المنهج المقترح الجمع بين طريقتي الحفظ والفهم؛ إذ لا فهم بلا حفظ، ولا فائدة من محفوظ غير مفهوم، ففي الحديث (**نَضَّرَ اللهُ امْرَأً سَمِعَ مِنَّا حَدِيثًا فَحَفِظَهُ حَتَّى يُبَلِّغَهُ فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ وَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ لَيْسَ بِفَقِيهٍ**)، وفيه أيضاً: (**يحمل هذا العلم من كل خَلَفٍ عدوله، ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين**)، ولفظ (**يحمل**) يشير إلى الحفظ، وباقي ألفاظ الحديث تشير بوضوح إلى أهمية الفهم وضرورته، وفي القرآن الكريم (**ففهمناها سليمان**)، والأحاديث في هذا المعنى كثيرة، وقد قيل:

إذا لم تكن حافظاً واعياً	فعلمك في الكتب لا ينفع
وتحضر بالجهل في مجلس	وعلمك في البيت مستودع
ومن يكن في عمره هكذا	يكن دهره القهقرى يرجع

كما روعي في هذا المنهج ثانياً: الانتقال من الأسهل إلى السهل.

وروعي فيه ثالثاً: ربط المسائل بأدلتها، ورد الفروع إلى أصولها وقواعدها.

وإنه باعتماد هذه الطريقة يمكن تخريج جملة من حملة الفقه العاملين به، والمنافحين عنه، والعارفين بأسراره، والقادرين على التعامل الإيجابي مع قضاياه ومصادره وموارده.

فذلكة تاريخية ومقدمة ثانية

إن الفقه المالكي هو الطبعة الأخيرة لفقه أهل المدينة، وقد سماه بذلك الاسم جماعةٌ من العلماء، منهم الإمام محمد بن الحسن الشيباني في كتابه الممتع (**الرد على أهل المدينة**)، وإنما كان ردُّه في هذا الكتاب على الإمام مالك وتلامذته.

ومنهم الإمام العَلَم حافظ المشرق والمغرب أبو عمر بن عبد البر في كتابه (**الكافي في فقه أهل المدينة المالكي**).

وعلى هذا الأساس فقد بدأ تدريس هذا الفقه منذ زمنٍ سحيقٍ، بدأ مع ربيعة بن عبد الرحمن شيخ مالك، حيث كان رحمه الله صاحب مسائل وأصول، وقد عرف في كتب الطبقات بـ(ربيعة الرأي)؛ لاستعماله القواعد والأصول في التدريس والإفتاء، وكان من الذين دافعوا عن حجية عمل أهل المدينة، واعتباره الصورة النهائية للسنة النبوية الشريفة، وقال في ذلك مقالته الشهيرة: (رواية ألف عن ألف، أحبُّ إلينا من رواية واحدٍ عن واحد).

كما بدأ تدريس هذا الفقه على يد رجلٍ آخر، هو الإمام محمد بن شهاب الزهري، وقد كان رأس مدرسة الحديث في المدينة المنوّرة، بل في العالم الإسلامي كله.

وقد تخرَّج مالك رحمه الله بجلَّة علماء المدينة، وفي مقدمتهم ربيعة الرأي في المسائل، وابن شهاب في الآثار، فكان مالك إماماً في المذهبين، ورأساً في الطريقين، وقد كان له مجلسان: مجلس للتحديث والرواية، ومجلس للمسائل والفتيا، وقد تبعه في ذلك تلامذته، فجمعوا بين تمحيص الروايات، والتدقيق في المنقولات، كما هو الحال في المدرسة المالكية المغربية، والتقعيد والتأصيل، والاجتهاد والتعليل، كما هو الحال في المدرسة المالكية العراقية.

وقد استمر شيوخ المذهب وأئمته يختارون المقررات الدراسية على وفق المنهجين السابقين، إفراداً وجمعاً، إلى منتصف القرن الرابع، حيث بدأت معالم وحدة المنهج الدراسي ترتسم في القيروان مع شيخ المذهب أبي محمد عبد الله بن أبي زيد، المتوفى سنة 386 هـ رحمه الله تعالى، فقد

كان كتابه (**الرسالة**) باكورة المقررات الدراسية الجامعة للمسائل الفقهية النافعة للمتعلمين، والمؤلفة ابتداءاً للدارجين في العلم المبتدئين، فقد قال رحمه الله في فاتحتها:

(فإنك سألتني أن أكتب لك جملة مختصرة، من واجب أمور الديانة، مما تنطق به الألسنة، وتعتقده القلوب، وتعمله الجوارح، وما يتصل بالواجب من ذلك من السنن: من مؤكدها، ونوافلها، ورغائبها، وشيء من الآداب منها، وجمل من أصول الفقه وفنونه، على مذهب الإمام مالك بن أنس، رحمه الله تعالى وطريقته، مع ما سهل سبيل ما أشكل من ذلك من تفسير الراسخين، وبيان المتفقهين، **لما رغبت فيه من تعليم ذلك للولدان، كما تعلمهم حروف القرآن،** ليسبق إلى قلوبهم من فهم دين الله وشرائعه؛ ما ترجى لهم بركته، وتحمد لهم عاقبته.

فأجبتك إلى ذلك؛ لما رجوته لنفسي ولك من ثواب من علم دين الله أو دعا إليه).

وقد استقر هذا المنهج في المدرسة المالكية إلى اليوم.

وربطاً للحاضر بالماضي ومن أجل استمرار تلاقح أجيال العلماء، وابتغاء الحفاظ على وحدة المدرسة المالكية وتخريج علماء أكفاء، يعيدون للفقه نضارته، وللدرس العلمي حلاوته، نقترح هذا البرنامج الدراسي للفقه المالكي، متوخين فيه الانتقال من الأسهل إلى السهل، ومن الوجيز إلى البسيط، والجمع بين المسائل والأصول، والأدلة والفروع، منبهين على أعظم الطرق في التدريس نفعاً، مقسمين ذلك على ثلاثة مراحل: ابتدائية، ومتوسطة، ونهائية، والله الهادي إلى سواء السبيل.

مراحل الدارسة المقترحة

المرحلة الابتدائية

أولاً: المسائل:

الكتب المقترحة:

(المرشد المعين، على الضروري من علوم الدين)، للعلامة أبي محمد عبد الواحد بن عاشر الأنصاري الفاسي (ت: 1040هـ)[1]، ويحسن تقسيمه تدريساً على ثلاثة أقسام:

القسم الأول: الطهارة وما تعلق بها قبلاً وبعداً.

القسم الثاني: الصلوات: فرضها مطلقاً، وسننها كذلك، ونفلها.

القسم الثالث: الزكاة والصوم والحج.

شروحه المقترحة:

1- **الحبل المتين**، محمد بن عبد الله المؤقت بالمسجد الأعظم اليوسفي بمراكش، وهو نافع لمن لم يسبق له أن سمع بالفقه أصلاً، ولا له به صلة.

2- **الدر الثمين والمورد المعين**، للعلامة محمد بن أحمد ميارة، وهو مناسب جداً للمبتدئين.

[1] ويحتوي هذا المتن على 317 بيتاً، بين فيها من أحكام الدين الضروري الذي لا يسع أحداً جهله، فبدأ بمقدمة كلية في العقيدة على مذهب إمام أهل السنة والجماعة أبي الحسن الأشعري سماها أم القواعد وما انطوت عليه من العقائد، ثم استغرق النظم العبادات وما يتعلق بها، وختم بباب جامع في التزكية والآداب والأخلاق المحمدية سماه مبادئ التصوف وهوادي التعرف، ويكون بذلك قد احتوى هذا المتن المنظوم على مهمات الإسلام والإيمان والإحسان، وجدير بالذكر أن هذا المتن قد اشتهر في المذهب، وكتب الله تعالى له القبول لإخلاص مؤلفه، وقد اعتني به في المذهب حفظاً ودراسة وشرحاً وتقريراً، ويمتاز شرحه هذا بإيجاز واختصار يوضح معاني الأبيات ومرامي الجمل.

ثانياً: الأدلة:

يكتفى في هذه المرحلة بكتاب (**المبين عن أدلة المرشد المعين**) للأستاذ امحمد بن محمد العربي العمراوي، مع الحذر من بعض الكتب التي يظن أنها تشرح هذه المنظومة بالاستدلال لها، وهي في الحقيقة تستدل عليها.

ثالثاً: الأصول:

يكتفى في هذه المرحلة بالمقدمة الأصولية التي افتتح بها صاحب المرشد المعين منظومته، وبكتاب (**إيصال السالك في أصول مذهب مالك**) للعلامة الولاتي، وهو شرح لمنظومة لطيفة في أصول المذهب، نظمها العلامة ابن أبي كف رحمه الله.

المرحلة المتوسطة

أولاً: المسائل

الكتب المقترحة:

الرسالة الفقهية للإمام أبي محمد عبد الله ابن أبي زيد القيرواني رحمه الله (توفي 386هـ)، بشرح أبي الحسن المنوفي مقرراً، والاستعانة بشرح الشيخ زروق، فهو مفيد جداً، ويستعان أيضاً بشرح غريب الرسالة لابن حمامة المغراوي.

وتقسم على أربعة أقسام:

الأول: العبادات: كتاب الطهارة إلى كتاب الحج، مع إدخال الغاية ابتداءا وانتهاءاً.

الثاني: الأضاحي والعقيقة والجهاد والأيمان والنذور والذكاة.

الثالث: كتاب النكاح ولواحقه.

الرابع: البيوع وما شاكلها.

ثانياً: الأدلة:

1- (**الموطأ**) للإمام مالك رحمه الله.

2- (**الفقه المالكي وأدلته**) للأستاذ الحبيب بن طاهر.

ثالثاً: الأصول

1- (**تقريب الوصول إلى علم الأصول**) للإمَام أبي القَاسم مُحمَّد بن أحمد بن جُزَي (توفي 741هـ)، وهو نافعٌ جدَّاً في هذه المرحلة.

2- (**مفتاح الوصول إلى بناء الفروع على الأصول**)، للإمام أبي عبد الله محمد بن أحمد الحسني الشهير بالشَّريف التِّلِمْسَاني (توفي ٧٧١ هـ)، للاستعانة به على تمرين الطلاب على علم الخلاف وشروط الاستدلال وصحة الأدلة.

المرحلة النهائية

أولاً: المسائل

الكتب المقترحة:

1- **مختصر** الشيخ الإمام خليل بن إسحاق الجندي (توفي 776هـ).

2- (**الشرح الكبير لمختصر سيدي خليل**) للشيخ الإمام أبي البركات أحمد بن محمد الدردير (توفي 1201هـ)، فلا عطر بعد عروس.

ويستعان بـ:

3- (**مواهب الجليل في شرح مختصر خليل**) للعلامة أبي عبد الله محمد بن محمد الرُّعَينيّ الشهير بالحطَّاب (توفي 954هـ).

4- (**منح الجليل شرح مختصر خليل**)، محمد بن أحمد عليش (توفى1299هـ).

5- (**حاشية الدسوقي على الشرح الكبير للإمام الدردير**)، للعلامة سيدي محمد عرفة الدسوقي (توفي 1320 هـ) كما قيل: كل الصيد في جوف الفرا.

ثانياً: الأدلة:

1- (**الاستذكار الجامع لمذاهب علماء الأمصار**) للإمام أبي عمر يوسف بن عبد البر القرطبي الأندلسي (توفي 463هـ) مقرراً.

ويستعان بـ:

2- (**التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد**)، له أيضاً.

3- **المعونة** للقاضي الإمام أبي محمد عبد الوهاب بن نصر البغدادي (توفي 422هـ).

4- **الإشراف** له أيضاً.

5- **تهذيب المسالك في نصرة مذهب مالك**، للإمام أبي الحجاج يوسف بن دوناس بن عيسى المغربي الفندلاوي.

ثالثاً: الأصول:

1- **شرح تنقيح الفصول في اختصار المحصول من علم الأصول** للإمام شهاب الدين أحمد بن إدريس القرافي (توفي 684هـ).

2- **(مقدمة)** الإمام أبي الحسن علي بن أحمد الأبهري البغدادي الشهير بالقصَّار توفي (389 هـ).

3- **(مراقي السعود)** بشرح مؤلفه له **(نشر البنود)** للإمام العلامة عبد الله بن الحاج إبراهيم العلوي الشنقيطي (توفي 1233هـ) (للاستعانة).

تلك أهم مصادر تكوين الفقيه على طريقة المالكية، عبر مراحل التكوين الثلاثة.

ولكن هذا البرنامج لا يمكن أن يؤتي الثمرة المرجوة منه، ويوصل إلى الهدف المنشود من تسطيره إلا باعتماد طريقة مثلى في التدريس، وذلك ما نقترحه على الراغبين في عشرة نقاط، فإليكموها:

1- استظهار المحفوظ عند بدء كل حصة.

2- التذكير بعناصر الدرس الماضي، وجعل ذلك مدخلاً للدرس الحاضر.

3- شرح المفردات اللغوية الموجودة في النص المراد تقريره.

4- شرح المصطلحات الفقهية الجديدة.

5- إعطاء خلاصة مركزة وواضحة لمسائل الدرس.

6- ربط إجمالي للمسائل المقررة بأدلتها العامة، وأصولها الكلية.

7- سرد النص المدروس من الشرح المعتمد في البرنامج.

8- تدوين الضوابط الفقهية الموجودة في الباب، على لوح القسم أو في دفاتر الطلاب، إن لم يكن ثمة لوح يكتب عليه.

9- تدوين القواعد الفقهية الناظمة للباب موضوع الدرس، مع غيره من الأبواب.

10- تدوين المستثنيات والنظائر.

على هذا المنهاج درج أئمتنا العلماء، وبهذه الطريقة تخرج أفواج الفقهاء، في تاريخ هذه الأمة، فقد قال الإمام ابن عرفة:

إذا لم يكُن في مجلسِ الدَّرسِ نكتةٌ وتقريرُ إيضاحٍ لُمشكِلِ صورةِ
وعزوُ غريبِ النَّـقلِ أو حَلُّ مقفَلٍ أو إشكالٍ أبدته نتيجةُ فِكـرَةِ
فدع سعيه وانظرْ لنفسكَ واجتهدْ ولا تتركَنْ فالتَّركُ أقبحُ خِلَّـةِ

وقد اشترطوا في التأليف شروطاً هي بعينها شروط في التدريس، قال الإمام المقَّري في أزهار الرياض ما نصه (1/ 246):

المقصود بالتأليف سبعة: شيء لم يسبق إليه فيؤلف، أو شيء أَلِّفَ ناقصاً فيكمَّل، أو خطأ فيصحح، أو مُشْكِلٌ فيشرح، أو مطوَّل فيُختصر، أو مُفترق فيُجتمع، أو منثور فيرتب.

وقد نظمها بعضهم فقال:

ألا فاعلمن أنَّ التأليـفَ سبعــة لكل لبيب في النصيحة خالص
فشرح لإغلاق وتصحيح مخطئ و إبداع حبر مقدم غير ناكص
و ترتيب منثــور وجمــع مفـرق و تقصير تطويل وتتميم ناقص

وقد لخَّص العلامة اليوسي رحمه الله ما سلف بقوله في كتابه الممتع المفيد (**القانون في أحكام العلم وأحكام العالم وأحكام المتعلم**) (ص335 وما بعدها): (ومن تمام الأهلية أن يحسن صنعة التدريس، وكيفية الإملاء والتقرير، والتحرير والتنقير، فإنه رب محصِّلٍ لفنٍّ ولا يحسن هذه الصنعة، فيقع في تخليط وتشتيت، فالواجب في ذلك إذا جلس أن يصغي إلى القارئ، حتى إذا فرغ من القدر المحتاج إليه، شرع هو بعد ما مر من الاستفتاح، فاشتغل بتقرير الكلام وتصويره، بعبارة تليق بالحاضرين.

وللناس في ذلك عند الدرس والتصنيف صنعتان: إحداهما أن يلتقط الألفاظ المفردة، فيفسرها لفظاً لفظاً، ويحرر فيها اللغوي والشرعي والعرفي، والحقيقة والمجاز، والمنفرد والمشترك،

ونحو ذلك، والمفرد والتثنية، والجمع المصحح والمكسر، والمصروف والممنوع، والمصحح والمعلل، ونحو ذلك، حتى إذا فرغ منها رجع إلى التراكيب، ففسرها وبين التصديق بعد التصور.

ثانيتهما: أن يخلط الكل، ويضربها ضربة، ففي كل تركيب يبين مفرداته ونسبته.

والأولى أحظى بتحرير المفردات على ما ينبغي، ولكن لا تخلو من صعوبة على المبتدئ وتهويل عليه، فهي لائقة بالمتوسط والمنتهي، والثانية أرفق.

ثم إن كان في الكلام بحثٌ أو شبهة، أو رأي باطل قرر ذلك كله، على ما صار إليه صاحبه، ولا يمنعه بطلانه عنده من تقريره، كما هو شأن أهل الطيش والجهل، ثم يقرر جواب ذلك أو الرد عليه إن كان في الكلام، وإلا أجاب من عنده إن أمكنه، وإن يسَّر الله الجواب على لسان أحدٍ من الحاضرين فليقبله إن كان صحيحاً عنده، ولا يستنكف عن قبوله لصدوره ممن دونه، فإن الحق خلق من خلق الله يظهره الله حيث شاء، و(الحكمة ضالة المؤمن)، وحق العالم أن لا يعتقد أن الأمر مقصورٌ عليه، ولا أنه في غنية عن الزيادة، وكفاية عن الفائدة، هيهات، بل حقه أن يجلس على نية أن يفيد ويستفيد).

وقال في صفة التأليف:

(والمصنفون فريقان: شخص ذو ملكة تامة ودراية كافية، ولا يستغنى عنه، وهو أعرف بما يصنع، وشخص ذو ذكاء وفطنة، ويأخذ الكتب فيستخرج لبابها، ويحسن رصفها وترتيبها، وهذا ينتفع به المبتدئ والمتوسط، وحق الجميع تحري الصدق والتحقيق، واشتمال الوضع على فائدة معتبرة تستحصل، كاختراع ما كان مغفولاً عنه، وجمع ما كان مفترقاً، واختصار ما كان مطولاً، وتهذيب ما كان محشواً، وبسط ما كان مغلقاً، وتكميل ما كان ناقصاً، تتميماً أو تذييلاً، أو تصحيحاً، أو تعريفاً أو ترتيباً، وعقد منثور ليحفظ، وحل معقود ليفهم، أو غير ذلك من الفوائد، وإلا فتسويد قرطاس، وتعديد وسواس).

وبعد أيها السادة، فذلك ما جادت به القريحة الكليلة، وأفرغته سواداً في هذه الصحائف المبيضة، فإن يكن قد صادف قبولاً عندكم بعد الله عزَّ وجلَّ، فذلك غاية المبتغى منه والمرجو من تسطيره، وإلا يكن ذلك فما أنا بمدعٍ علماً ولا لي قدم راسخ في المعرفة.

والله يهدي من يشاء إلى الصراط المستقيم.

وكتبه تسويداً بمدينة ليدن بهولندا، محمد العمراوي، ظهر يوم السبت 23 رمضان 1428هـ، 6 أكتوبر 2007م.